

بيروت الواقع والمتخيلة .. قراءة في "المكان/ الفضاء الروائي" في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" للروائي "ربيع جابر"

سوسن أحمد نبريصي

جامعة النجاح الوطنية _ نابلس.

ملخص الدراسة

تعتمد الدراسة إلى متابعة مدلول المكان/ الفضاء الروائي في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" عند الروائي ربيع جابر، والكشف عن أثر المكان على شخصيات الرواية، والوقوف على صراع الثنائيات الضدية، من خلال الإجابة عن السؤال ماهية المكان ورمزيته في الرواية؟ وما الدلالات في الأمكنة الذي وظفها الروائي؟ وللوصول إلى ذلك اتبعت الدراسة المنهج التحليلي. وقد جاءت الدراسة في تمهيد تناولت به الحديث عن الفضاء والمكان في العمل الروائي، والدراسات السابقة ومنهج الدراسة وأهميتها، وتأسيس قدم نبذة عن حياة الروائي، وروايته "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"، وتناول المحور الأول: عتبات الرواية، حيث وقف على العتبة البصرية واللغوية، والإهداء وصفحة الغلاف الرابعة. وغطى المحور الثاني: المكان في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"، فعرض الفضاء/ المكان في الرواية، ودلالات الفضاء/ المكان في الرواية، ونوع المكان فيها. وانتهت بخاتمة وذيلت بإيجاز لأهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: الفضاء، المكان، رواية، بيروت.

Abstract

This paper tackles the significance of the setting/ narrative space in *Berytus: An Underground City* by Rabea Jaber, and undertakes unearthing the inner workings of the undeniable influence the setting has on its characters; all the while remaining mindful of the contrariety between the binary oppositions that are part and parcel of the narrative space. It does that by first attempting to define the setting, and then deciphering its symbolism in the aforesaid novel and explaining the significance of the author's choice of places therein. To this end, the paper follows an analytical approach, starting with an introduction that addresses the discourse surrounding the concept of narrative space in fiction, the relevant literature and the methodology followed. It then presents an overview of the author's life and of his novel, *Berytus: An Underground City*, in the background section, before moving on to its argument section, the focus of which is twofold— firstly, it sheds light on the paratexts of the novel (namely, the visual and the verbal), as well as unpacking the meaning implicit in the dedication and the fourth cover page thereof. And secondly, it covers the particular setting/ narrative space in the literary work at hand, its type and its significance. The paper ends with a conclusion and a summary of the most significant results.

Keywords: *space, place, novel, Beirut.*

■ المقدمة

إنَّ المكان من العناصر الهامة في حياتنا اليومية، وفي أي عمل أدبي، حيث أنه إذا حدث شيء ما أو قرأت نصًا ما، فسرعان ما تتبادر العديد من الأسئلة المبهمة إلى الذهن، ومن هذه الأسئلة.. أين؟ أين جرى ذلك؟ وهو سؤال مبرر، وإلا فكيف سنتخيل الشخصيات والأحداث، وتعيش تجربتها وشعورها، إذا لم يكن هناك حيز مكاني متواجدة فيه. ويدعم ذلك الرواية المتخيلة، فعلى الرغم من أنَّها ليست من الواقع بمكان إلا أنَّ لها فضاء مكاني تسبح به، وبالتالي يمكننا القول لو لم نجد مكانًا في الرواية لاخترعنا لها مكانًا، وليس هذا فحسب، بل ويندمج مع العنصر الثاني من عناصر العمل الروائي؛ وهو الزمان، ليغدو مكانًا حقيقيًا ذا قيمة، وهذا ما تُرجم بأراء العديد من النقاد حين بيّنوا وأكّدوا أنَّ المكان لا يكون منفصلاً عن غيره من العناصر الأدبية، وأولها الزمن، تجلّى ذلك في قول حميد لحداني: " الحديث عن مكان محدد في الرواية يفترض دائماً توقفاً زمنياً لسيرورة الحدث. لهذا يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني، في حين أنَّ الفضاء يفترض دائماً تصور الحركة داخله، أي يفترض الاستمرارية الزمنية " (1991، ص63)، ويبيّن أيضاً أنَّ " أي حدث لا يمكن أن يتصوّر وقوعه إلا ضمن إطار معين، لذلك الروائي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني" (ص65)، وأشار باشلار على احتواء المكان ضمناً للزمان، بقوله: " إنَّ المكان في مقصوراته المغلقة، التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثفاً. هذه هي وظيفة المكان" (Bachelard, p.39) إذاً المكان هو كل شيء، فالزمن عاجز عن التوقف والرجوع أو التقدم، أو حتى الخروج عن الزمن، لكن المكان قادر على استيعاب الزمن الغابر، والآتي، ومن هنا فإنَّ المكان مسرح العمل الروائي، ويتفاعل مع عناصر العمل الأدبي؛ الزمن والشخصيات والأحداث، يتبلور الفن الروائي. وتتناوله الرواية تناولاً مباشراً، وذلك كونه يساهم بطريقة مباشرة في فهم "الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمع، والقرطاس المرئي والقريب الذي سجل الإنسان عليه ثقافته وفكره وفنونه، مخاوفه وآماله وأسراره، وكل ما يتصل به، وما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل، من خلال الأماكن نستطيع قراءة سيكولوجية ساكنيه وطريقة حياتهم، وكيفية تعاملهم مع الطبيعة، أي من منظور تاريخي" (Al-Naseer, p.16_17)، ومن هنا فقد عدّه بعض النقاد أهم عناصر العمل الروائي، بقوله: " إنَّ الفضاء داخل الرواية، بعيداً عن أن يكون محايداً نراه يُعبّر عن نفسه من خلال أشكال متفاوتة، ويكتسب معاني جديدة متعددة إلى الحد الذي نراه أحياناً يمثل سبب وجود النتائج نفسه" (Lahmidani, p.66)، وفي المعنى ذاته قال باشلار: " إنَّ العمل الأدبي حين يفتقد المكانية، فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته (Bachelard, p.5-6)، وقد أكدَّ ذلك تصوّر أحد النقاد بقوله: "عبقرية الأدب، حقاً، حيزه (Murtad A.M., p.137)، وتعود أهميته " لما يحتله من نسبة اشتغال في النص الروائي، إلى جانب عناصر أخرى (Marashda, p.145).

وعند الحديث عن المكان، فإنّ من الأمور التي يقع بها الباحثون، إشكالية المصطلح، فالبعض يستخدم لفظة المكان، والبعض الآخر يستخدم لفظة فضاء، فما الاختلاف بين المكان والفضاء؟ خصوصاً أنّ الكثير من النقاد والباحثين يوظفون المصطلحين في الدراسات النظرية والأبحاث، إلى أن جاء لحميداني وأطرّ للتمييز بينهما، بقوله: " لم نصادف ضمن الأبحاث التي أطلعنا عليها دراسة تميز بشكل دقيق بين الفضاء والمكان، ويبدو أنّ هذا التمييز ضروري"، وقد وضح ذلك بقوله: " الفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان، إنّه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تمّ تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تُدرك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكاية، ثم إنّ الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائية الرواية بخلاف المكان المحدد، فإدراكه ليس مشروطاً بالسيرورة الزمنية للقصة" (Lahmidani,p.64)، وبالتالي " لا يمكن تصوّر الفضاء الروائي دون تصوّر الحركة فيه، في حين يمكن تصوّر المكان الموصوف دون سيرورة زمنية حكاية(Lahmidani,p.63)، وبناء على ذلك " نجد أنّ النقاد المحدثين يستخدمون ما يقابل كلمة الموقع(المكان/ الفضاء) للتعبير عن مستويين مختلفين للبعد المكاني: أحدهما محدد، ويتركز فيه مكان وقوع الحدث، والآخر أكثر اتساعاً ويعبر عن الفراغ المتسع الذي تتكشف فيه أحداث الرواية " (Qassem S.1978,p.106) ، ومن هنا فإنّ الدّراسة تناولت الأمكنة المحددة والفضاء الروائي في الرواية موضع الدّراسة.

■ الدّراسات السابقة

حظيت رواية "بيرتيوس : مدينة تحت الأرض" للروائي ربيع جابر بمقالين اثنين؛ هما:
1- 2020 نُشر مقال بعنوان " بيريتوس... و تقنية الاسترجاع لبلوغ الحلم" للباحث صباح هرمز الشاني، في الحوار المتمدن- عدد: 6571 . وقف بها عند آلية سرد الرواية، والطريقة التي افتتح بها جابر روايته مؤكداً أنّ هدفه "شدّ المتلقي الى ترقب اللحظة التي تحين أن يبدأ الراوي بسرد أحداث الرواية، هذه اللحظة التي ينتظرها ولا تأتي"، ويشير إلى أنّ الراوي الحقيقي في الرواية يهتم بترقب المتلقي في سرد أحداث الرواية، وذلك من خلال توظيف ضمير المخاطب المتكلم، مثل "اسمعي" و" أريد أن أعتذر"، "لك أن تكتب ما تشاء". وقدّم في مقالته ملخصاً موجزاً عن الرواية، وأشار إلى التأثيرات الأدبية والروائية للروائيين "كافكا" و"ماركيز" على نتاج ربيع جابر الأدبي، وذلك من خلال مزج الأخير الواقع بالخرافي الكائن في لا وعي الإنسان الشرقي، لافتاً النظر إلى التطور في أسلوب جابر إلى الواقعية السحرية، إلاّ أنّه ذكر صراحة أنّ ربيع جابر لم يقع تحت تأثيرها مباشرة، بل لاحظ الأسلوبين، وخرج

بأسلوب أنصح، وعقد الباحث مقارنة بين حياة البطل تحت الأرض، وفوقها، من خلال الربط بين ذاكرة بطل الرواية لما يعيشه الآن في القبو تحت الأرض، وما عاشه في طفولته وشبابه في مدينة بيروت الحقيقية، بالاعتماد على عملية الاسترجاع، ووقف مطولاً عند شخصية ياسمينه وزوجها إيليا وعباس صديق زوجها الذي يريد أن يتزوجها، ويرى الباحث أنها تلتقي مع "أوفيليا" في مسرحية (هاملت) لـ"شكسبير". وأشار أنه على الرغم من أن الرواية تقوم على السرد الذاتي، عبر ضمير (أنا)، إلا أنها لم تخل من تعدد الأصوات، فقد ظهر فيها بالإضافة إلى صوت الشخصيات الرئيسية صوت الشخصيات الثانوية.

2- 2018 نُشر مقال بعنوان " متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض»" (قراءة هرمينوطيقية) للباحثة سمية عزام، في مجلة فكر الثقافية، وقد وقفت عند دال الاسم "بيريتوس" تاريخياً، وارتباطه بالتاريخ الإغريقي العريق، وربطت بين سنة صدور الرواية واغتيال رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري عام 2005، وتطرق إلى أن سير الزمن كان وثيقاً في الرواية، وأشارت إلى أن الرواية تزخر بالدلالات الرمزية، وعرجت على الشخصيتين الرئيسيتين "بترس" و "ياسمينه"، وقد قرنت بين ياسمينه و"أوفيليا" حبيبة "هاملت"، في مسرحية "شكسبير". وتناولت الشكل الذي أطلقه الروائي على عالمه الأرضي بلفظة "المتاهة"، وربطت بينه وبين كابوس الذاكرة ومتاهاتها وأنفاقها والخروج منها عبر الكتابة.

■ منهج الدراسة وأهميتها

أتبعت الدراسة المنهج التحليلي في الوصول إلى دالّ المكان في الرواية. وتكمن أهميتها كونها تتناول رواية حديثة، حيث استطاعت مواكبة تحولات تاريخين؛ "التاريخ الروماني" و "التاريخ الحربي" وصلتهما بالواقع المعاصر، وذلك عبر سرد روائي فني تأسس على قراءة ما بين الماضي واليوم.

تأسيس

■ الروائي ربيع جابر

روائي وصحفي وأديب لبناني، ولد في بيروت عام 1972، حصل على درجة البكالوريوس في الفيزياء من الجامعة الأمريكية في بيروت. يعمل محرراً في الملحق الفكري والأدبي الأسبوعي "أفاق" في جريدة (الحياة) الصادرة في لندن.

لُقِبَ بالروائي الخجول، وذلك لحبه للعزلة، فقد تجنَّب الحياة والابتعاد عنها، ولجأ إلى كتبه وأقلامه معتبرًا أن الكتابة هي الخلاص الوحيد، حاول في البداية الجمع بين الواقع والخيال في أدبه، إلا أنه سرعان ما عزم الدخول إلى معارك التاريخ والتغلغل فيها، حتى باتت الروايات التاريخية لعبته السردية المفضلة، يُعرف عنه الغزارة في الإنتاج الروائي، والتنوع في المواضيع والأساليب. حاز الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لدورة عام 2012 عن رواية "دروز بلغراد - حكاية حنا يعقوب"، وأعلن عن ذلك في أبوظبي يوم 27 مارس 2012، أعماله الروائية:

- "سيد العتمة"، 1992
- "شاي أسود"، 1995
- "البيت الأخير"، 1996
- "الفراشة الزرقاء"، 1996
- "رالف رزق الله في المرأة"، 1997
- "كنتُ أميراً"، 1997
- "نظرة أخيرة على كين ساي"، 1998
- "يوسف الإنجليزي"، 2000
- "بيروت مدينة العالم - الجزء الأول"، 2003
- "بيروت مدينة العالم الجزء الثاني"، 2005
- "رحلة الغرناطي"، 2005
- "تقرير ميليس"، 2006
- "بيريتوس: مدينة تحت الأرض"، 2005
- "بيروت مدينة العالم - الجزء الثالث"، 2007
- "الاعترافات"، 2008
- "أمريكا"، 2009
- "دروز بلغراد - حكاية حنا يعقوب"، 2011
- "طيور الهوليداي إن"، 2011

▪ رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"

صدر عن المركز الثقافي العربي في الدار البيضاء_المغرب عام 2005 ألفين وخمسة رواية للروائي اللبناني ربيع جابر بطبعتها الأولى بعنوان "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"، وقد استطاع ربيع جابر في روايته «بيرتيوس: مدينة تحت الأرض» عبر مئتين وثمانية وثلاثين صفحة أن يستنهض المكانَ للإدلاء بشهادته، ويستقرئ الذاكرة القديمة، فقد عاد بالقارئ إلى ما قبل الميلاد؛ إلى العهد الروماني، وعاش معه مع الآثار الرومانية في مدينة "بيرتيوس" الرومانية العتيقة، وقد أقامها الروائي في نصه الروائي تحت مدينة بيروت اليوم، وهبط إليها عبر شخصية "بطرس"؛ وهو حارس سينما "سيتي بالاس" في ليلة ماطرة، متتبعًا كائنًا حيًّا أبيض اللون، يُخيلُ إليه أنه صبي، ليكتشف عالمًا مطمورًا تحت الأرض بناسه وعاداتهم وتقاليدهم، وحضارتهم وأبنيتهم وعمرانهم، وطعامهم وشرابهم، عبر مساحة سرد زمنية يتمازج فيها التاريخ الروماني بالواقع المعاصر، تتناوب فيه شخصية "بطرس" بين بيروت الرومانية وبيروت الواقع، يقدم ما تخفيه الشخصيات من تفاصيل، وما تحمل المعالم من دلالات، ويكشف هواجس وخفايا باطنية لأحداث وتواريخ قديمة وواقع معاصر. إلى أن يعودَ بالقارئ مرة أخرى إلى الواقع؛ فوق الأرض من خلال إخراج "بطرس" عبر منفذ البحر .

بنية سردية متقنة يجيب الروائي عن السؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ، وهو من أين جاءت هذه المدينة؟ من أين جاء سكانها؟ وذلك عندما يصل بنا في نهاية الرواية إلى حي العميان، ويتعرف على إحدى الشخصيات، وهو إبراهيم ابن خالته الذي فقد واختفت آثاره منذ الحرب الأهلية اللبنانية (1975_1990) يمكننا القول إنَّ الرواية تتحدث عن مكانين اثنين عبر ثلاثة أزمنة، وهم زمن الرومان وزمن بيروت في الحرب الأهلية، وبعد الحرب.

المحور الأول: عتبات رواية " بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"

▪ دلالة المكان من خلال الغلاف

يطالعنا الغلاف في رواية ربيع جابر " بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" بطبعتها الأولى وعاء دلالي، وذلك من خلال استغراق صورة المكان نصف صفحته؛ حيث تكتسح صورة وجه الأرض ورجل بملابس سوداء وقبعة سوداء أيضًا، يمشي نحو الأسفل الجزء الأعلى من الصفحة، ثم يليها اسم الروائي ثم اسم العمل، وفي حقيقة الأمر إنَّ هذه الصورة تجذب القراء، وتطرق ذهن من تقع عيناه على الرواية، متسائلًا أين ذاهب هذا الرجل؟ ولم يسير إلى أسفل؟ أين هذه الصورة؟ لم سطح الأرض هكذا بلا نبات وبلا أشجار، وكأنَّه أشبه بكوكب آخر؟ لم ملابس الرجل سوداء؟ من هنا ندرك مدى أهمية هذا الحدث الفني في بناء معمار الرواية،

كونه جوهر العمل وأساسه، الأمر الذي يتيح للقارئ نظرة استشرافية قبل ولوجه في قراءة النص، وذلك إيماناً من الكاتب بأهمية الأيقونة، وتزداد أهميتها وتؤدي وظيفتها إذا كانت صورة بصرية،" فالصورة بمختلف أنماطها ومستوياتها في حياة الإنسان، صارت الوسيلة المفضلة، بل والمهيمنة في أشكال التعبير والتواصل، وطرائق إقناع الآخر، كونها تجمع في آن واحد، وعلى نحو بليغ بين الجمال والإفادة (Alidrisi,2015,p.72)، وبذلك يمكنني القول إنَّ صفحة الغلاف في رواية "بيرتيوس" ليست زخرفاً وتزييناً، بل ارتبطت بالنص ارتباطاً عضوياً، وانطوت على قيمة دلالية. والسؤال هنا هل التقت الصورة البصرية مع الصورة اللغوية؛ أي العنوان؟

وقد تغيرت صفحة غلاف الرواية بطبعتها الثالثة، حيث اعتلى صفحة الغلاف اسم الروائي ثم اسم العمل، ثم غطت النصف الآخر من الصفحة صورة فتاة ملتفة الظهر بجديلتين، بملابس سوداء أيضاً، صحيح أنَّها تطرق ذهن القارئ، فيتساءل من هذه الفتاة؟ وأين هي؟ لكن من وجهة نظري أرى أن الصورة في الطبعة الأولى أكثر ملائمة، حيث ارتبطت مع العمل الروائي ارتباطاً وثيقاً، وكانت مدلولاً مكانياً يثير القارئ لاكتشافه.

■ دلالة المكان من خلال العنوان

العنوان أهم المحطات الدلالية التي يسلمنا إياها الروائي، فجاء العنوان مزدوجاً " بيريتوس: مدينة تحت الأرض"، نلاحظ أنَّه من البداية يجاهر بالدلالة اللغوية المرتكزة على عنصر المكان في عمله الفني، فقال "بيريتوس" وبعد ذلك نقطتان رأسيتان مفسراً بأنَّها مدينة تحت الأرض. وقد جاء العنوان جملة اسمية متكاملة الأركان، وإفادة للخبر كاملاً، فالروائي أراد أن يقدم لنا مختصراً لما ستقدمه الرواية من خلال العنوان. لم يكتف بالقول مدينة تحت الأرض، بل عرفها بمبتدئها، الأمر الذي يمنح القارئ إمكانية التصوّر شارحاً في طرح التساؤلات؛ عن هذا المكان ووجوده ودلالته؟ ما معنى "بيريتوس"؟ وأين تقع؟ وما دلالتها؟ وما رمزيها التاريخية؟ ما علاقتها بتحت الأرض؟ لم تحت الأرض؟ هل هُدمت هذه المدينة أم دفنت؟ وإلى أي حد يتصل اسم "بيريتوس" باسم بيروت؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تتوارد إلى ذهن متصفح الرواية، وقارئها، ويقوي عنصر التشويق رغبة القارئ في البحث ضمن زوايا النص المختلفة عن دلالته.

ومن الملاحظ أنَّه يبدو التركيز في العنوان على المكان بوصفه عنصراً فضائياً أيضاً، حيث " بيريتوس: مدينة تحت الأرض"، جملة تحتوي على دالّ ومعناه، وتشير إلى فضاء مكاني.

وبعد قراءة الرواية يمكنني القول إنَّ الروائي ربيع جابر استطاع من خلال السرد أن يحقق للعنوان وظيفته المبتغاة، من خلال ارتكازه على عنصر المكان في اختيار التسمية، حيث ينقل القارئ ضمن مختلف التراكيب

اللغوية إلى عالم تحت الأرض، هل نستطيع القول إنَّ العنوان كان أيقونة دلالية توحى بأنَّ الرواية رحلة إلى تحت الأرض، في جميع أبعادها وحيثياتها، من عالم إلى عالم، من الواقع إلى الخيال، من نظم وعادات وطقوس إلى أخرى لا تمت لها بصلة، ليحقق وظيفته الجاذبة الإثارية، وذلك كونه يسعى " لاستجلاب اهتمام القارئ، أو الجمهور المستهدف، من خلال تبئير انتباهه (AlIdrisi, p.68) ، وإغرائية كونه" يدفع بفضول القراء للكشف عن غموضه وغرابته (Belabed,2008,p.86)، إذًا فمن الواضح جدًا أنَّ اعتماد العنصر المكاني في العنوان لم يأتِ اعتباطاً بل قصد إليه الروائي، لما له من شأن في توجيه الأحداث وتعقدتها، وبالتالي لقد جاء منسجماً مع الدال البصري.

■ صفحة الغلاف الرابعة

تعدُّ الصفحة الرابعة، الواجهة الثانية للكتاب، ولها قيمة هامة " كونها بمهمة إغراء القراء الذين يتجهون إليها مباشرة بعد اطلاعهم على واجهته الأولى (Al Idrisi,p.107) ، وقد تضمنت في رواية " بيريتوس: مدينة تحت الأرض" تعليقاً من المؤلف قال به: " هذه الرواية من نسج الخيال، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو محض مصادفة، ومن الغرائب ومجرد عن أي قصد (Jaber Rabie,2005,p.7) إنَّ هذه الكلمات تطلق العنان للقارئ، فيتساءل هل هي خيالية حقاً؟ ولم كتب ذلك؟ هل نستطيع أن نقول إنَّ هذا التعليق لخص معنى العمل الروائي واختزله؟ أم طرق ذهن القارئ بفكرته الأساسية في العمل الأدبي، أم هل أضاء للقارئ عتمة الرواية وما تؤول إليه؟ والقارئ للرواية يخلص إلى أنَّ الروائي ربيع جابر يتلاعب بالمكان والزمان في بناء فن سردي محكم، ربط به الواقع بالماضي، ومزج الماضي بالخيال، فهي ليست من نسج الخيال كما يتصدر، لكنَّ علَّه كتب ذلك لاعتبارات ما، وتحفظاً من المساءلة.

المحور الثاني: دال المكان / الفضاء في رواية " بيريتوس: مدينة تحت الأرض"

أ. المكان/ الفضاء في رواية " بيريتوس: مدينة تحت الأرض"

يمكنني القول إنَّ الروائي ربيع جابر نجح في استنطاقه مرحلة تاريخية وذلك من خلال تقديم صورة واضحة للأبعاد التاريخية والواقعية والنفسية والأيدولوجية للبيئة المكانية، فقد تجلَّت قدراته اللغوية وبراعته الأدبية في توظيف الحدث التاريخي ومقابلته بالواقع.

تتراوح الأحداث في رواية " بيربيوس :مدينة تحت الأرض" بين بيروت "بيرتيوس" المدينة المطمورة تحت الأرض، وبيروت الجديدة " اليوم"، و" بيرتيوس " لها النصيب المكاني الأكبر في أحداث الرواية، فالمكان الرئيس هو المدينة الأرضية " بيرتيوس"، ويتجول بالقارئ داخل المتاهة كما يسميها، فيذهب به إلى المكتبة، وإلى قلب المدينة؛ حيث القصر الرئاسي، وإلى المناجم والنهر، وذلك عبر دهاليز وممرات ضيقة، يستكشفها البطل والقارئ معاً بنور الشمعة، ومن تحت الأرض يصعد بالقارئ إلى فوقها، إلى بيروت الجديدة، متنقلاً به بين المدينة القرية، وبذلك ينقله إلى صورة الواقع عبر زمن الرواية.

والقارئ المتمعن لثنائية المكان التي اتّسم بها السرد الروائي في رواية "بيرتيوس" يخلص إلى أنّ الرواية زاخرة بالدلالات، وقد تجلّت في مرتكزات مكانية رمزية، فقد بدأ برحلة السقوط من قعر سينما "سيتي بالاس" والسؤال المنطقي لمّ اختار الروائي هذه النقطة دون غيرها؟ وما مرتكزها الدلالي؟

سينما "سيتي بالاس" ويُعرف اليوم باسم مبنى "البيضة" وذلك نسبة لشكلها الهندسي البيضاوي بعد الحرب، يقع وسط بيروت، يمرّ المارة من أمامه دون معرفة قصته قبل وأثناء الحرب الأهلية اللبنانية، فقد كان أول مبنى تجاري كبير بُني في بيروت، وكان يوجد فيه سلالم كهربائية آنذاك¹، وبعد انتهاء الحرب تمت المحافظة على مبنى البيضة، والإبقاء عليه كما هو، وأدخل إلى لائحة الجرد لقيّمته الهندسيّة الغربية، إذًا هو الأثر المائل من زمن الحرب الأهليّة اللبنانيّة²، الكائنة على خط التماس الذي يقسم بيروت بين شرقية وغربية³، ويذكر الروائي صراحة أنّ هذه البؤرة نقطة سقوطه في غير موضع، قوله: " أنا سقطت من قعر سينما سيتي بالاس إلى عالمهم، والرعد يقصف والمطر ينهمر" (Jaber,p.178) ، وقد كشف أنّ وقت سقوطه الأسوأ في حياته، فقال: " إذا سألتني عن أسوأ لحظة في حياتي كلّها، أقول: تلك اللحظة، في قعر مبنى " سيتي بالاس(Jaber,p.25)) ، وقوله: " آه، كنت أتوجع، والرائحة الخضراء تدخل أنفي في هذه البئر العميقة تحت سيتي بالاس(Jaber,p.28)) ، وقوله: " وجدنتي في مكان أعمق من قعر البئر حيث كنت غائبًا من الوعي، الدم ينزف من جسمي وأنا أغرق، أسقط وأسقط وأسقط، كأنني لم أبلغ قعر الحفرة الغامضة (تحت سينما بالاس) بعد.(Jaber, p.29) . وقد أشار إلى انقسام بيروت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، إلى "بيروت الشرقية" و"بيروت الغربية"، بقوله: " تحول مكبًا ثم جبلاً للنفائيات أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، بسبب إقفال المعابر، فأين تذهب نفائيات "بيروت الشرقية" إذا كان يستحيل الوصول إلى المكبات وراء " بيروت الغربية (Jaber,p.149) . لقد أراد الروائي أن يعبر عن لحظة التحول التاريخي للمكان؛ من مكان عريق، زاخر بالحياة، إلى مكان غير مأهول، يقف دالًا على تقاطع خطي الزمان والمكان.

ومن الأماكن التي تحتل موقع الصدارة في الرواية " الغرفة " التي أقام فيها بطرس وقت سقوطه إلى المدينة الأرضية، وهو ما أطلق عليه في الرواية "الكهف الحجري"، وقد كان أبيض الحيطان، منير بنور الشمعة، وجاء على ذكر الأدوات المستخدمة في تلك الغرفة، وهي المقعد الحجر، والطاسة الحجرية، والملعقة الخشبية، والساعة المتوقفة، والقنديل، والناووس الحجري، بقوله: " كان هذا المكان كهفًا فعلاً، بنتوءات صخر، ومسلات حجر تتدلى منحوتة نحتاً بالماء والوقت، ورأيت جانباً من الكهف مطروشاً بالكلس الأبيض، ورأيت رفة عاليًا عليه قنديل زجاج قديم، قنديل كاز غير مشتعل، وجنب القنديل، رأيت ساعة حائط مدوّرة إطارها عريض ملون بلون النحاس (Jaber,p.36) ، وقال في موضع آخر: "مرة أخرى جربت أن أرفع جذعي على كوعي. مرة أخرى فشلت. الرجل حمل طاسة (أين كانت؟ على الأرض؟) حمل طاسة حجرًا، ثم قرّب ملعقة خشبية من فمي (Jaber,p.46) ، وقوله: (" فيقوم عن المقعد الحجر، ويُخرج حجر صوان من ثوبه الطويل، ويخطّ علامات على الأرض (Jaber,p.86).

استغرق فضاء المدينة الأرضية مساحة في الفن الروائي، تجلّى في دهاليز المدينة وممراتها الضيقة، منخفضة السقف، المظلمة، وقد أطلق عليها الروائي لفظة " المتاهة" بقوله: " ضائعين في متاهة مدينتهم الأرضية" (Jaber,p.66)، وقوله: " متاهة ممرات يضيع فيها الإنسان ولا يرجع إلى بيته (Jaber,p.75) ، وقوله: " من أجل سلوك دروب متاهة الحجر" (Jaber,p.92)، فقد أخرج الروائي "بطرس" من غرفته لاستكشاف المدينة الأرضية، وكانت الطريق " غرفة تقضي إلى غرفة تقضي إلى غرفة... بعد غرف كثيرة بلغنا غرف طويلة، أحد حيطانها يستدير قليلاً وفيه أكثر من فوة، أكثر من باب، بلا باب: فقط مداخل جانبية. ثم وصلنا - وقد فقدت الأمل في الوصول إلى مكان فسيح قليلاً- وصلنا إلى طريق: مسقوفة، صحيح وتحاصرها الحيطان، بلى، لكنها - على الأقل- طويلة (Jaber,p.131). وعبر هذه الممرات يمشي بنا إلى المكتبة حيث " كل من أراد القراءة يذهب إليها ويقرأ في نور الشموع، .. عندنا في مكتبة بيروت العامة كتب قديمة ونادرة، ... عندنا كل الكتب الدينية. عندنا كتاب جغرافيا. عندنا كتاب عن النباتات. عندنا كتاب ليس قديمًا جدًّا جلبه أحد الوافدين السُمر، كتاب عن الفيزياء الحديثة .. أكثر من عشرين كتابًا (Jaber,p.82_83).

وبعد ذلك أخذنا عبر الدهاليز إلى المناجم " وهي منجم واحد فقط، عبارة عن كهف عميق الانحدار يحفرون فيه نزولاً ويستخرجون منه الفحم الحجري، وهذا الفحم الحجري من أساسات الحياة تحت الأرض. فمن دونه لا أفران ولا طاقة ولا وقود لبرد الشتاء. وأفرانهم ليست للطعام وصناعة الشمع فقط، ولكنها أيضًا لحرق الجثث ومنع انتشار الاوبئة (Jaber,p.151)، وذهبوا بالقارئ من المناجم إلى الأفران " ثم رأيت ذلك المنظر : تلك الأفواه الضخمة المفتوحة تشتعل في جوفها النار، يرمون الفحم الحجري بالسطول، ويتحركون عراة الصدور، ويتكلمون بالإشارات (Jaber,p.179) ، ومن الأفران وصلوا إلى قلب المدينة: القصر

الرئاسي " وبعد الأفران مررنا على قلب المدينة وتأملنا القصر الرئاسي. لم أر قصرًا. رأيتُ بيتًا مستطيلًا واطنًا تعلوه غرفة ضيقة مربعة قالوا إنها مقر الرئيس ، (Jaber,p.179)، "وبعد "الأفران" و"القاعة الرئاسية" و"معمل الشمع" و" مزارع السمك" أخذوني عبر المتاهة الحجر إلى الجسر على النهر...دامت رحلتنا من البيت إلى النهر الذي يقع وراء جدار البيت شمعة ونصف الشمعة. أي نحو الساعتين أو ثلاث ساعات، ولعلها أربع ساعات! هل تصدق؟ النهر وراء الحائط حيث أسند ظهري لكن للوصول إليه عليك أن تسلك طرقات متعرجة، وتدور زمنًا في دهاليز تفضي إلى دهاليز، وعبرنا في وادٍ تُنبت فيه الصخور أشكالًا غريبة، ورأيت ما يشبه جبوب اللقطين، وحبات اللقطين الكبيرة، ورأيت ما يشبه شتلة الفليفلة الحلوة وقضبان البامية الرفيعة العالية. وكلها حجر أبيض ضارب إلى صفرة الشمام الماوردي(Jaber,p.186). ووقف بالقارئ على النهر، بقوله: " كان النهر هنا عريضًا، والماء يغطي مجراه. صحيح أنّ المياه بدت راكدة، لكنها على الأقل كانت تغطي قاع النهر(Jaber,p.186) وفي موضع آخر قال: " وحين صرنا على ضفة النهر من جديد، رأينا ما يشبه خيوطًا من فضة تتعلق من السقف(Jaber,p.190) وتحدث أيضًا عن الجسر، بقوله: " هكذا تخيلت الجسر، وأنا أتذكر الجسر الصغير أول قرينتنا، لكن الجسر "تحت" كان أشد بساطة: رأيت صخرة واحدة سوداء، بلاطة مستقيمة طويلة من رخام سميك قائم_ تمتد من هذا الجانب إلى الجانب الآخر، تحت البلاطة يجري الماء وقد ارتفع منسوبه بسبب ضيق النهر في هذه النقطة(Jaber,p.198).

من الأمكنة وفضائها في العالم السفلي ينتقل السارد إلى الأمكنة وفضائها في بيروت الواقع، فمن الأمكنة التي تناثرت في الفن السردي، بيروت المعاصرة خلال الحرب الأهلية وبعدها، فقد عقد الروائي مقابلة ضدية بين التاريخ والواقع، والمدينة والقرية، والمدينة خلال الحرب وبعدها، حيث كان لهذه الثنائيات دور في اختراق وتشكيل الفضاء/ المكان الروائي، وذلك لأنه " لا يكفي عند الوقوع على مكان ما وظّف في النص أن نتخيل شكله، وإنما لا بدّ من البحث في الترابطات التي يثيرها حوله وفيه، بمعنى البحث عن وجوده كجزئية متحركة أو مضيئة ظاهرة في فضاء أوسع منه(Marashda,p.146)، فقد تكاملت معًا لتساعد على فهم السرد الروائي.

أ. ثنائية المدينة التاريخية والواقعية

انضح التاريخ في المدينة الرومانية القديمة ومعالمها، فالمدينة التاريخية كانت مدينة حجرية، فمقاعدهم وأدواتهم حجرية وأخرى خشبية، وقوله: " كان هو قاعدًا على الكرسي الحجر، جنب سريري، ينفخ في ناي خشب" (Jaber,p.50). وقوله: " المسلات المتدلية من السقف، والحائط المطروش بالأبيض، والرف الحجر، والقنديل على الرف، وساعة الحائط المعقدة على شبر (Jaber,p.37)، ومما يؤكد على حجرية العصر، استخدامه الشمع لمعرفة الوقت، فانطفاء الشمعة دليل على انقضاء النهار، بقوله: " لم يرجع الشيخ إسحاق في موعده ولا رجعت راحيل، فانشغل بالي. كنت متأكدًا أن الوقت جاوز الظهيرة، بل جاوز العصر أيضًا لأن الشمعة أوشكت على الانطفاء (Jaber,p.84)، وبقوله: " أما عباس الصياد ... واقفًا يتأمل الأرقام الرومانية الغامضة التي أوشكت أن تُمحي (Jaber,p.136) يشير إلى بعد الحقبة الرومانية، فالأرقام باتت قريبة من الاندثار.) أمّا علاجهم وتطبيبهم، فبيّن أنهم يشربون مياه مخدرة لتخفيف آلامهم، فقال " تبتسم وتخبرني أنّ كل ما أشربه، كل حساء السمك وكل الشاي، تعمله من أجلي في مياه تُخدر الأوجاع (Jaber,p.104). وكشف لنا عن جانب اجتماعي، حين تحدث عن الناس ومزاياهم وعاداتهم، فقد أبان أنّهم صادقون، بقوله: "هنا لا أحد يكذب. لا مصلحة لأحد في ذلك" (Jaber,p.77)، ومما يميزهم أيضًا حديثهم، فلا تسمع صوتًا مزعجًا ولا ضجيجًا ولا صراخًا، بقوله: "قال هامسًا (Jaber,p.45)، وفي موضع آخر قال: " لكن الأصوات تبقى هامسة. هذا في وقت النهار. أمّا الليل فالصمت شامل دائمًا: كأنك في مقبرة. لم أسمع مرة ضجة في الليل (Jaber,p.68)، ومن عاداتهم التي استوقفت "بطرس"، تحية النوم بقولهم: " ليكن نومك عميقًا وتفتح عينيك مرتاح البال!" (Jaber, p.52). وتحدث كثيرًا عن طعامهم المقتصر على السمك، بقوله: " بعد أيام من حساء السمك" (Jaber,p.55)، وقوله: " لا يأكلون شوكولا تحت ولا بقلولة. لا سكر عندهم " (Jaber,p.107)، وكشف عن سوء السمك، بقوله: " لم يكن حساء سيئًا جدًا. كان سيئًا (Jaber,p.48)، بسببه أصبح نحيلًا، بقوله: " هذا النحول المخيف. هذا الوجه الذي تغير" (جابر، ص105). والغريب في معتقداتهم، أنّهم يطلقون على الناس الذين خارج مدينتهم، ناس الوحل: " ناس الوحل الذين يحيون خارج المدينة، في الضواحي المهملّة، حيث لا يذهب الأهالي (Jaber,p.53)، وفي موضع آخر يكشف أنّهم كانوا في مدينتهم، لكن بخروجهم أصبحوا ناس الوحل، بقوله: " إنّ ناس الوحل كانوا أصلًا من أهل بيروت، وما حدث هو أنهم اضطروا للخروج إلى وراء السور (Jaber,p.109)، وبقوله: " من يصير رئيسًا يُحبس في القصر ويُمنع من الخروج، ولا يدخل عليه أحدٌ إلا زوجاته (Jaber,p.89)، أراد أن يقول إنّ الرئيس لا دور له، بقوله " عدد الوزراء في الحكومة غير محدد لكنه كبير" (Jaber,p.89) إلى تعدد الأصوات وبالتالي تخطب الحكم.

ومن المدينة المتخيّلة التاريخية يسير بنا جابر في خط متوازٍ إلى المدينة الواقعية؛ بيروت المعاصرة، فكشف لنا التطور العمراني، واكتشاف الكهرباء، بقوله: " الليل يغمر بيروت المشتعلة بالكهرباء (Jaber,p.9)، و"بناياتها الباطون العالية المملوءة شققاً" (Jaber,p.135) ، وقوله في موضع آخر: " الحقول اختفت، وظهرت مكانها بنايات زجاج عالية وشوارع زفت عريضة" (Jaber,p.90). وعبر عن توسع المدينة وضواحيها على حساب الحقول الزراعية، وهو بذلك يسلط الضوء على مشكلتين من المشاكل البيئية في العصر الحديث، وهما ازدياد الكثافة السكانية و الزحف العمراني، بقوله " أخبرته أنّ الأشجار قليلة جداً في بيروت فوق. نادراً ما نراها ... قلت له إننا نحتاج إلى بناء البيوت لأنّ الناس يتكاثرون وأهالي الأرياف يأتون إلى العاصمة بحثاً عن عمل: البنايات تأخذ مكان الشجر" (Jaber,p.81) . وأبان عن التقدم المصرفي، حيث يستطيع الزبون سحب أمواله من خلال البطاقة، بقوله: " أرى علامات الـ X على بلكوناته العالية الباطون التي تشبه علامات الـ X التي ترسمها ماكينة المصرف حين أحاول إخراج مال بالبطاقة الإلكترونية" (Jaber,p.158) . وكشف عند التقدم الطبي، فقال: "أقول له إنّه " فوق" توجد أماكن للمرضى فيها أدوية يحقنونها في الجسم فيصير الألم محمولاً" (Jaber,p.103).

وصور لنا لهوهم وانشغالهم، قائلاً: " تلك الليلة سمعت أصوات بيروت، مدينتنا. بيروت، فوق، بيروت الفوقا. سمعت غناء وموسيقى (لم تكن موسيقى أجنبية. كانت موسيقى عربية. لم أتأكد ماذا كانت الأغنية. لكنها كانت أغنية حديثة... أغنية من الأغاني الجديدة الشائعة التي يبرز نجمها شهرين فتضح بها المدينة كلها ثم لا نسمعها بعد ذلك" (Jaber,p.68) . وفي موضع آخر قال: "كانوا فوق يسهرون ويضحكون ويعجقون المطاعم والمقاهي، يسمعون الأغاني ويرقصون ويتكلمون" (Jaber,p.157). وكشف في موضع آخر عن مظاهر الحياة المادية، السيارات الفخمة، والجسور، والأنفاق والشوارع الواسعة، والضجيج ، بقوله: " الضجة تلو "فوق" ... هل انتهى الليل؟ هل تقفل المطاعم أبوابها الآن؟ هل يغادر الناس، ونصفهم يترنح، ويطلعون إلى مواقف السيارات، ... يطلعون في سيارات فخمة فارهة، سيارات ألمانية ويابانية وأميركية وسويدية، ثم ينطلقون إلى الظلام الرطب المضاء بأعمدة الكهرباء، ينطلقون على شوارع الإسفلت العريضة إلى بيوتهم وفنادقهم وقصورهم، أو يعبرون الجسور والأنفاق إلى النوادي الليلية في الأشرفية وجونيه والمعاملتين (Jaber,p.158-159). ومن صور هذا اللهو حال نسائهم أيضاً، فصور النساء يتجولن ليلاً، بقوله: " وأنظر إلى سرب فتيات في تنانير قصيرة ... ينحدر في شارع المعرض بين الكراسي والطاولات العامرة بأصناف طعام وشراب. والوقت ليل، والشارع يغرق في أنوار المصابيح الكهرباء" ص158. وصور كيف أصبحت بيروت خليطاً متعددًا، وذلك بظهور النساء الأجنيات، بقوله: " حرسْتُ مرة مجمعاً تجاريًا في الكسليك، وكنت أرى الليل يستمر هناك صاخبًا بالضحكات والنساء الروسيات العابثات حتى تلوح نجمة

الصباح وتظهر العيون حمراء_ خالية من الطاقة_ ناعسة لا تطلب إلا النوم ونعمة النسيان (Jaber,p.159).
(وكشف عن تعدد أصناف طعامهم بقوله: " ليس الألبان والأجبان فقط، بل أصناف اللحوم التي تُشوى،
وأصناف الشراب التي لا تحصى" ص85، وما يصاحبه من مشاكل صحية، بقوله:" مرات ومرات حاولتُ
وأنا فوق أن أعتمد نظام حمية يزيل الوزن الزائد عن جسمي(Jaber,p.106)

ب. ثنائية المدينة والقرية (الجبل)

ومن الثنائيات الضدية التي تجلت في السرد الروائي المدينة والقرية، وقد عبّر عن القرية بلفظة "الجبل"
وذلك باسترجاع ذكريات طفولته في الجبل، فقد كشف عن حياتهم البسيطة، وعمل أبيه الفلاح، المرتبط
بالأرض، بقوله: " أبي في حقله في الجبل يسقي بالمجرفة، وتيار الماء يجري بين الأتلام الخضراء. عند العصر
يقعد ويمسح العرق عن وجهه يشرب شيئاً (Jaber p.94). أمّا بعد هجرتهم وانتقالهم إلى المدينة، فغدت
حياتهم مادية، بعيدة كل البعد عن الطبيعة، وقد عبّر عن التصاق البيوت، وصغرها مقارنة ببيوت القرية
وسعتها، بقوله:" إنّ كل بيوت بيروت متشابهة، كلها مثل علب السردين، مصفوفة في صفوف، وفوق
الصفوف صفوف أخرى، وكلها بلا هواء، ولا خضرة حولها، حتى السماء لا نراها، ... من يرى السماء في
هذه المدينة؟" (Jaber,p.96). يكشف عن ضيقه واختناقه بالمدينة، وتجلت الفكرة ذاتها في موضع آخر فقال:
" أبي كان يقول إنّ هذا الطعام الطيب الذي نأكله الآن في هذه الشقة يصير أطيب بدرجات إذا أكلناه في الهواء
الطلق: الأكل بين الأشجار الخضراء في المدى المفتوح المنير والهواء العطر الجبلي، كيس كالأكل بين
حيطان الباطون، في الهواء الخالي من الأوكسجين، الذي يسبب الربو (Jaber,p.126).

وقدّم الروائي صورة واقعية لجيلين بعد هجرة من الجبل إلى بيروت (المدينة)، جيل الأب ولابن، فرسم لنا
صورة حزينة، توضح حال جيل الآباء بعد الهجرة وانتقالهم للمدينة، فقد كان الأب فلاحاً حراً يملك أرضاً،
يعمل متى يشاء وكيف يشاء إلى عامل بالأجرة، ناظر يفتح باب الكراج للآخرين، فقال:" لقمة العيش
اضطرته للعمل ناظرًا. هو الذي عاش حياته يزرع الحقول ويقطف المواسم، صار يفتح باب كراج البناية
الباطون الشاهقة، ويُقلّ الباب. يكنس البلاط حيث يلعب الأولاد. يتأكد من خيوط الكهرباء المعلقة كالأفاعي
فوق غرفة المحرك الكبير، غرفة حديد سوداء تنفث سحبات مازوت أشد سوادًا وتسبب له
سعالاً (Jaber,p.122) الأب الذي يلتحف السماء ويفترش الأرض، يحنّ لقرينته وللجبل وقد شبهها بالجنة،
متحسرًا على أيام الجبل، بقوله " ينظر للمدينة نظرة تكسر القلب، ويقول إنّ هذه المدينة بلا فصول، وليس
فيها خريف ولا ربيع، بل فصل صيف حار رطب، وفصل شتاء بارد ماطر، ليس فيها فصول. أين الخريف

ونسائم الخريف، أين الربيع وروائح الربيع! كان يحنّ إلى حياته القديمة في الشوف، الجبال الخضراء تجري فيها الينابيع، يقول إنّها الجنة (Jaber,p.123).

وكشف أنّ جيل الابن الغارق في اللهو والسهر في صالات السينما، بقوله: " عشت القسم الأطول من نهاراتي تحت الأرض، في صالات السينما، ... أحفظ كل ما أراه من أفلام فرنسية وأميركية وهندية مع أن نصفها يكون مقطوعاً أو فاسد الصورة أو بلا صوت، ... أحفظ المدن الأجنبية وأعبرها في مناماتي. أحفظ كل الصور التي أراها، مع أنني في البدء أُصدم_ أنا الجبلي_ بمنظر الأعضاء التناسلية عارية هكذا مفضوحة، في نور الشاشة" (Jaber,p.118,119). حيث يصوّر الانفتاح والصدمة التي عاشها، وفي موضع آخر يكشف الكاتب عن الانتماء للمدينة عند "الابن"، فقد عبّر عن حبه للمدينة، لاكتشافه عالم جديد، بقوله: " من 1983 إلى 1990: تهجّرنا من الجبل فخرس أبي الأرض والبيت والحقل والسماء والعصافير، وصياح الديك ونهيق الحمير خسر أبي راحة البال، لكنني رحبت سماء أخرى، سماء أخرى لم أكن أعرفها، سماء تحت الأرض". (Jaber, p.117) ويعبّر عن انتمائه وحبّه لها صراحة، بقوله: " تظّلّ مدينتي الحبيبة التي أحيا تحت سماءها الزرقاء، وأعرف شوارعها، وحدائقها الصغيرة، وما يحوم فوق سطوحها من عصافير وأسراب حمام". (Jaber, p.135).

ت. ثنائية بيروت خلال الحرب الأهلية وبعدها

رصدت الرواية الحرب الأهلية بأحداثها ونتائجها، فصوّرت هجرة المواطنين من بيوتهم وقراهم وتشتتهم، تجلّى ذلك بقوله: " من 1983 إلى 1990: تهجّرنا من الجبل فخرس أبي الأرض والبيت والحقل والسماء والعصافير، وصياح الديك ونهيق الحمير خسر أبي راحة البال (Jaber,p.117) وأبان عن انقسام المدينة إلى قسمين بعد احتراقها وتهجير سكانها، بقوله: " أسواق الوسط التجاري احترقت في رب السنتين (1975_1976) أصحابها تركوها وسافروا أو هاجروا أو انتقلوا بتجاراتهم إلى أماكن أخرى من المدينة. المدينة تحولت بعد نهبها واحتراقها إلى خط التماس بين شطري المدينة (Jaber,p.163). وكشف لنا آثار القصف، وحال الذين لم يهاجروا، بقوله: " البنايات المنخورة بالنشطايا والرصاص. مداخلها تغطيها أتربة ونفايات، وعلى العتبات تنبت جبوب الصعتر والشوك والطيون. أذكر القمصان الملونة الرطبة، والثياب الداخلية البيضاء والسوداء، تخفق في النسيم على الشرفات التي تشلّع درابزينها أو سُرق حديدتها" (Jaber,p.164).

وعرض تعطل الحياة خلال الحرب، وإغلاق المدارس " من 1983 إلى 1990 كانت هذه حياتي: الزمن زمن حروب تشتعل ثم تهمد، والمدارس في معظم الأوقات معطلة (Jaber,p.117). ومن صور الحرب، فقدان

الناس، حيث سلّط الضوء على فقدان إبراهيم؛ ابن خالته، فلم يعثر أحد عليه، فهو رمز لحدث فقد الناس خلال الحرب، بقوله: " مع أنني عشت في الحرب، وتهجرت مع أهلي من الجبل، وفقدت في الحرب أقارب (وابن خالتي _ أحد أقرب رفاقي_ خطف سنة 1987 ولم نسمع عنه بعد ذلك خبراً" (Jaber,p.32). وذكر ذلك مرة أخرى بقوله: " هل أخبرك عن ابن خالتي الذي خُطف وطقّ قلب خالتي وهي تنتظر رجوعه وتنتشر صورته في الجرائد وتخصص مكافآت لمن يحمل إليها خبراً" (Jaber,p.41). ونقل لنا خوف الناس آنذاك من الدفن أحياء تحت ركام القصف والانفجار، بقوله: " أذكر "الوقت الأسود" كانت أمي تكنس البيت مئة مرة في اليوم وتظللّ تتسخ الأرض. كنا ننام فينهمر علينا التراب ونحن نيام، كنتُ أخاف أن أدفن حيّة". (Jaber, p.94) وكشف أنّ هذا الخوف لم يكن خيالياً بل من واقع الحرب، كشف عن ذلك بعدم وجود قبور للموتى، فمن قوله نحرقهم بالأفران اتضح أنّهم كانوا يحرقون بنار القصف، بقوله: " لا يوجد قبور في بيروت إلا هذا القبر... نحرقهم بالأفران" (Jaber, p.133-134).

وكشف للقراء الحالة السياسية التي سيطرت على لبنان تلك الفترة، فكانت أشبه بشريعة الغاب، حيث الجميع رؤساء ووزراء، ولا قانون ولا دستور ولا رئيس للدولة، بقوله: " ليس عندنا رئيس حكومة، كل القرارات تُتخذ بالتصويت، أسأله عن الوزراء في الحكومة. يقول إن العدد غير محدد، لكنه على العموم عدد كبير. ويقول في بعض الأوقات نكون كلنا وزراء" (Jaber,p.89).

ويكشف لنا عن ردة فعل الناس إزاء فعل حزب الكتائب، بقوله: " هذا الحائط من أكياس الرمل جعل الطريق أضيق. باتت العربات العسكرية إذا مرّت من هنا تُسقط بعض أكياسه، وبينما نبنيه نسمع لهاث أبي. العرق يتصبب من وجهه، وكل الوقت يشتم "الكتائب" (Jaber,p.125) وقد أطلق عليهم لفظة تيوس، مشيراً إلى تنبئه بأيام عصيبة وقت رؤيتهم، بقوله: " هؤلاء الذين لا يطيقهم،" تيوس الساحل" الذين منذ رأهم في الجبل_ يعبرون أمام البيت في "بيك آب" مكشوف، وأمامهم تزحف بليدة "ميركافا" حدس بأيام سوداء" (Jaber,p.125).

قدّم الروائي لنا صورة عن بيروت التي تعج بالحياة بعد الحرب، حيث رسم للقارئ صورة متحركة ناطقة، بالناس وأكلهم وليلهم، وطعامهم، بقوله: " رؤوسهم ملفوفة لفاً بصخب الموسيقى والحوارات وأصوات السيارات وضجيج المطاعم... مطاعم أميركية تبيع كراسون ودونات وأصناف أنيقة من الخبز المحلى مزينة بالسكر والكريما أو الشوكولا...تحت الشارع الآخر حيث المطعم البلدي اللبناني، وقبائلته مطعم السلمون الفخم الذي يدفع الواحد منا مرتبه كاملاً من دون أن يشع فيه: أرى داخله _ وراء الزجاج النظيف اللامع_ كنبات المخمل الحمراء والطاولات المحفورة يتوزعها وزراء ونواب ومطربون وراقصات... كل هذه الشوارع تعجّ بالمطاعم. وفي الليل تُخرج المقاهي الكراسي إلى الطريق، تتمدد عن الأرصفة المقاهي، وتسيطر على

الطرق. يرفعون المظلات والمصاييح وأفخاخ البعوض، وتدور المراوح" (Jaber,p.72). وعرض صورة للأبنية الجديدة التي يعيشون بها، بقوله: "بناياتها الباطون العالية المملوءة شققاً سماها أبي" "علب سردين" تظلّ مدينتي الحبيبة التي أحيا تحت سمائها الزرقاء، وأعرف شوارعها، وحدائقها الصغيرة، وما يحوم فوق سطوحها من عصافير وأسراب حمام" (Jaber,p.135)، وفي رفرفته بالعصافير والحمام يرمز إلى حالة السلام التي يحيون بها، فسوّر أمنهم ورخاءهم واستقرارهم بالضحك والغناء والرقص، بقوله: "كانوا فوق يسهرون ويضحكون ويعجقون المطاعم والمقاهي، يسمعون الأغاني ويرقصون ويتكلمون" (Jaber,p.157)

وكان للفضاء (الأشجار والسماء والغيوم، والشمس والطائرات والبحر) مكانة واسعة استند عليها النصّ الروائي، وقد وظّفها توظيفاً إيجابياً، حيث عاد إلى نواميس الطبيعة الفطرية، الموحية بالاتساع والنور وروح الحياة، فقد استحضر الطبيعة؛ شمسها وسماءها وطائراتها في حديثه مع صديقه سلمان، بقوله: "أراد الفلكي سلمان أن أصف له الأشجار والأنهار والسماء والغيوم. لكنه أكثر من كل هذا أراد أن أصف الشمس: قرص الشمس المنير الذهب الذي تخرج منه نيران مشتعلة... سألتني عن الطائرات، هل أعرف الطائرات، هل أعرف هذه العربات العملاقة الجبارة ذات الأجنحة" (Jaber,p.80) واستحضر حرارة الشمس في موضع آخر، بقوله: "فوق . في العالم البراني، الحرارة تُلهب البيوت والشوارع" ص51، وفي موضع صرّح بحبه لمدينته ذاكراً الحدائق والعصافير والحمام، بقوله "تظلّ مدينتي الحبيبة التي أحيا تحت سمائها الزرقاء، وأعرف شوارعها، وحدائقها الصغيرة، وما يحوم فوق سطوحها من عصافير و أسراب حمام" (Jaber,p.135).

يصف لحظة خروج "بطرس" من المدينة التاريخية المطمورة إلى العالم الفسيح، إلى النور، بقوله: "كنت عند حافة البحر. ورأيت نور السماء. كان الوقت ليلاً. والسماء تتباعد فيها غيوم قليلة. لكن النور كان قوياً في الأعلى" (جابر، ص237) كانت السماء محط نظره، وقد أشار إلى عدم تصديقه لما يرى، فقال في موضع آخر: "أنظر إلى سماء الليل بغيومها المتباعدة، وأنظر إلى الصخرة العملاقة صامتة فوق الأمواج، ولا أصدق أنني على وجه الأرض" (Jaber,p.238)

برز المكان في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" في صورتين؛ بيروت الواقع: المدينة فوق الأرض، وبيروت المتخيلة: المدينة تحت الأرض، ويرى القارئ تنوع صور المكانيين تنوعاً ملحوظاً، من حيث طبيعتها، ووظائفها الدلالية: مركز المدينة، القرية، السينما، البحر، المكتبة، الشوارع، الممرات، الغرفة. وبهذا التنوع، لم يبتعد المكان في الرواية بعيداً عن العناصر الروائية الأخرى المكونة للسرد، وإنما دخل في

علاقات متعددة مع تلك المكونات، كالشخصيات والأحداث، وفي صميم الرؤى السردية. يرصد من خلال ذلك المكان وعمارته وعمرانه وناسه وطعامه وشرابه بين اليوم والماضي.

ب. دلالات المكان/ الفضاء وإحاءاته في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض"

القارئ المتمعن يلحظ أنّ المكان في رواية " بيرتيوس :مدينة تحت الأرض" يتفاوت ضيقاً واتساعاً، فعندما سقط "بطرس" إلى المدينة الأرضية؛ بيروت التحنا يضيق المكان، وهكذا يمضي الراوي بالقارئ في وصف الدلالات الحسية للأمكنة وإحاءاتها المثيرة، فهل يمكننا القول إنّ ضيق المكان يوحي ببعد التاريخ، والحضارة الرومانية؟ أم ثقل الحرب الأهلية؟ أم ذاكرة الروائي المتعبة من ماضٍ ضيقٍ عليها حاضرها؟ إنّ الازدواجية التي أوحى بها المدينة الأرضية ترمز إلى امتداد عميق للحضارة المعاصرة، وترسخ التراث العريق وترتبط به ارتباطاً وثيقاً من جهة، ومن جهة أخرى تكشف عن ماضٍ أليم، ضحايا حرب، أبرياء قُتلوا واختفت، وأحياء دُمرت.

فنقطة البدء في الولوج إلى "بيرتيوس" من حفرة في قعر سينما " سيتي بالاس" لها ذكرى أليمة لدى اللبنانيين، ترتبط بالحرب الأهلية، وهذا يتوافق مع تفسير النصير للحفرة، حيث فسر أنّها تصل بالقارئ إلى البقعة الدفينة، إلى اللاوعي لدى الروائي، بقوله: " في مدى تاريخ كامل من العلاقات بين الطبيعة والإنسان وبينها وبين المجتمع، نجد ثمة بقعة دفينة تتجمع فيها مثل هذه العلاقات هي أشبه ما تكون بالحفرة، الباطن، اللاوعي... بل هي كل ما هو كائن في مكان قصي مجهول، وعندما يبدأ انسكابه على العالم الخارجي.. يتشكل الوعي وبه يبدأ تاريخ الأشياء.. في كل بئر ثمة قلق وخوف" (Al Naseer, 1986, p.27) أم هل الحفرة التي سقط منها تلتقي مع الحفرة الدالة على اغتيال الحريري، فذكرت المصادر أنّ الانفجار عقب اغتيال الحريري خلّف حفرة⁴، هل الحفرة هذه كانت مصدر الإلهام لديه.

والمكان الذي عاشت به شخصية "بطرس" يعود للزمن الروماني، وهو بذلك يكشف عن أهميته التاريخية، ويسقوط " بطرس" من قعر سينما " سيتي بالاس" علّه أراد أن يقول إنّ هذه الأرض التاريخية تتآكل يوماً بعد يوم، وتُمسح آثارها، وتندثر وتنجلي، وتجلّى ذلك بثنائية بيروت الواقع الجديدة، أي بعد الحرب حيث البنايات العالية ومظاهر الانفتاح والمدنية الجديدة، فهل أراد الروائي أن يقول أيضاً إنّ الحرب؛ الوقت الأسود كما عبّر عنه تُمسح آثاره بانتهاء الحرب؟ أم أنّه أراد أن يلبس بيروت ثوب الثورة مرة أخرى؟ إذاً هل يمكننا القول إنّ الماضي يدلّ دلالة واضحة على الماضي الحربي بذكرياته وقتلاه وضحاياه.

وفي بيروت الأرضية، يُوقف الروائي الزمن، بدا ذلك بقوله: " كان العجوز يتحدث وأنا أنظر إلى وجهه ثم إلى عمامته ثم إلى الساعة المعطلة على الحائط الأبيض، ثم إلى القنديل الذي لا يُشعل أبداً

(Jaber,p.107)، ماذا أراد أن يقول الروائي، هل هو بذلك يُوقف الذاكرة المعدّبة بصور الحرب بداخله؟ أم لبعث الزمن الروماني عن الواقع؟ على الرغم من أن الزمن هو المؤثر في المكان الروائي، فالاختلاف الواضح في بيروت التحتا والفوقا في الرواية يعود للزمن، فبيروت هي بيروت، تجلّى ذلك بقوله: "لا تخف يا ابني. أنت في بيروت. مدينتنا نسميها "بيروت". المدينة فوقنا لا نسميها "بيروت" مثلكم. نسميها "البرّاء".

(Jaber, p.48) وبالتدقيق في زمن صدور الرواية، وهو عام 2005 وتساءل القارئ هل هناك صلة خفية بين سنة النشر وأحداث تلك السنة؟ وما الحدث الجلل الذي حدث في لبنان في ذلك العام ليدفع الكاتب بكتابة نصه الروائي؟ ليلحظ القارئ أنه في عام 2005 أُغتيل رئيس الحكومة اللبناني رفيق الحريري⁵، الذي كان له دور في إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية، بل نلحظ دقة الروائي، حتى وظّف الشهر ذاته الذي قُتل به الحريري بشهر خروج "البطل بطرس" إلى العالم البراني، بقوله: "فأنا خرجت من تحت الأرض يوم 24 شباط/فبراير (Jaber,p.236)، هل يمكننا القول بأنّه اغتيال الحريري والانفجارات أعادت الكاتب إلى زمن الحرب الأهلية، ربما كون الحريري أسهم بشكل كبير في إنهاء الحرب وقتذاك؟

وارتبط "بطرس" بالشخصيات في بيروت التحتا ارتباطاً إيجابياً، فقد صاحب الشيخ اسحاق وابنته راحيل اللذين أقام عندهما، واعتنى به وبطعامه، والفلكي سليمان، والمؤرخ مسعود، وعباس الصياد، والجغرافي زكريا، والعشّاب يوسف الذين ساهموا في تعرفه على المدينة ومعالمها، وارتبط ارتباطاً محورياً بياسمينه؛ وهي سبب هبوطه للعالم السفلي، فكانت عنده الأمل والحياة، فكانت بزيارتها له تنقله إلى إنسان آخر، تجلّى بقوله: "أنتظر ياسمينه قاعداً في السرير...كنتُ واثقاً أنها ستأتي. هناك أحاسيس تسيطر علينا ونعرف أنها لا يمكن أن تكون خطأ.. أخذتني إلى الجنة مرة، من جهنم هذه حملتني إلى الجنة، من الأرض إلى السماء رفعتني" (Jaber,p.116). هل الروائي ربيع جابر ينطق هواجسه وما بداخله على لسان "بطرس"، هل "بطرس" انعكاس لشخصية الروائي، لم في بداية الرواية نوه أن الرواية من نسج الخيال، وأن أي تشابه بين الشخصيات والأحداث هو من باب المصادفة والغرائب، وهذا مدخلاً للتساؤل.

سار المكان في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" في إطار دائري، لكنه اتسع للأحداث والشخصيات كافة، فهل نستطيع القول إن الشكل الدائري في الرواية يحمل لغزاً يُدخل القارئ في متاهة الشكل الذي اصطفاه الكاتب لمسرح الأحداث. فالغرفة (الكهف الحجري) بدأ من نقطة وسار بمتاهة، كما وصفها بقوله: "لم يكن خيالاً! خرجتُ من الكهف فرأيتُ المتاهة" (Jaber,p.145)، فهل دهاليز المدينة هي طبقات الذاكرة وتلايف دماغ الروائي⁶؟! ومسار هبوطه من أعلى إلى الأسفل علّها حركة توحى بالولوج إلى أعماق نفسه.

ويتسع المكان بانتقال القارئ إلى بيروت الفوقا، وذلك له إشاراتة النفسية والاجتماعية، فقد بدأ بالسينما "سيتي بالاس" وطاف في أرجاء بيروت، وانتقل إلى الجبل، وعاد في نهاية الرواية من موضع آخر، وهو البحر، وفي ذلك تجسيد للواقع، البعيد عن الثورة، ويدلّ ذلك دلالة بارزة على الاتساع والأفق والأمل وحبّ الحياة، هل يمكننا القول إنّ خروج " بطرس" من بيرتيوس : بيروت الأراضية انتصار للحياة وللغد، فلم يستسلم، لقد رفض العيش في الماضي السحيق الذي يعيش في دواخله. إذاً نستطيع القول إنّ المكان ينقسم في بيروت الواقع إلى ثلاثة أمكنة، السينما ووسط المدينة يوحي بالانفتاح والاختلاط بالثقافات الأخرى، ويشير إلى اللهو والمجنون، فلم يفكر أحد في معالي الأمور، أمّا الجبل فقد رمز إلى الطبيعة الجبلية النقية، والحياة هادئة البال، والفضاء والبحر أراد بها تجسيد الأمل، وتجديد الأمانى والأحلام المحطمة به بعد الحرب، وذلك لأنّ الشمس والسماء ظلّتا تراوداه بطريقة مباشرة.

والقارئ المدقق يلحظ أنّ شبح التقدم والتطور لم يكتفِ بالحضارة والعمران والآثار، بل حاول الدخول إلى الذات الإنسانية، تجلّى ذلك في تخلي "بطرس" عن إبراهيم ابن خالته فقيد الحرب الأهلية، بل وعدم التعرف عليه، وتجنبه الكلام خوفاً من تعرفه إليه، والمضي نحو نفسه، بقوله: " خفتُ أن أتكلم حين كلمني . خفت إذا سمع صوتي من هذه المسافة القريبة أن يعرف من اكون. خفت أن يعرفني . خفتُ أن يتذكرني! حين خرجت من حيّ العميان عرفت أنني لن أنتظر انتهاء موسم الأمطار": عليّ أن أفر! إذا بقيت، أعرف ماذا سيحدث! إذا بقيت أكثر لن أطلع من هنا: سابقى هنا مثلما الجميع!" (Jaber, p.231).

المحور الثاني : نوع المكان في رواية " بيرتيوس :مدينة تحت الأرض"

حظي المكان في رواية "بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" برمزية تاريخية، وبالعودة إلى زمن الإغريق، الأمر الذي يتيح المجال للقارئ بإعمال خياله، إلا أنّ الأمكنة انقسمت في الرواية إلى ثلاثة أقسام: المكان المغلق، والمكان المفتوح، والمكان اللامتناهي (اللامحدود)، وتداخلت الأمكنة في الرواية لتُشكّل، عبر تضافر شفراتها وتشابك علاقاتها وتفاعلها، والانتقال من العالم المفتوح إلى المغلق ثم العودة له من جديد وإبرادة قوية سياقها الخاص.

المكان المغلق

المكان المغلق هو المسيطر على جو الرواية، وهذا يلتقي مع طبيعة البنية السردية التي تعود بنا إلى تاريخ غابر، وهو تاريخ الرومانيين من جهة، وتاريخ الحرب الأهلية اللبنانية من جهة أخرى، فسيطرة التاريخ على شخصية البطل "بطرس" وعلى الرواية بمجملها يخدم منطق الرواية التاريخية، فكان نصيب الشخصية الأعظم في الرواية في المكان المغلق، لكنه كان دائم السعي للبحث عن مخرج؟ هل كان الكاتب يريد الخروج من ذاته أم هل الماضي والتاريخ يسيطران على عقله، ويسعى للتحرر منهما؟ أم هذا يشير إلى هيمنة اللاوعي على الروائي؟

استطاع الروائي استحضار تاريخ "بيرتيوس" القديم، فقد أظهره ببنية دلالية ملائمة، فقد وظف لفظة "بيروت التحتا" نلاحظ دقة اللفظة، فهي توحي بانغلاق المكان وانسداده، ويوحى العالم المغلق بقلق الكاتب وخوفه، وانعكس ذلك في رغبته الجامحة في السماع لأحاديث أصدقائه عن المدينة للتعرف عليها وعلى ممراتها ودهاليزها حين يسترد عافيته ويتجول فيها، بقوله: "بدأت أملّ. أريده أن يكلمني عن عالمه، هذه المدينة وأهلها وحياتهم" (Jaber, p.84)، وتارة أخرى يشعر برغبة ملحة في الوصول إلى بوابة الخروج، بقوله: "أول أيام استيقاظي من الغيبوبة أوشكت على البكاء، وأنا أطلب منهم أن ينقلوني إلى فوق، أن يردوني إلى بيتي، قلت لهم إنني سأدفع لهم مالا كثيرا، فقط احملوني إلى فوق." (Jaber, p.70)، و قوله: "أردت أن أصرخ بأقوى صوتي، أن أوقظ تلك البيوت الحجر المظمورة كلها، ليأتي ويحملوني إلى بيتي (Jaber, p.70). ولم يقف الأمر عند بطرس الهابط من العالم الأعلى، بل تجلت رغبة الشخصيات المقيمة في بيروت التحتا بالخروج والصعود إلى أعلى، ومحاولاتهم واستعدادهم، فما هي ياسمينة تنسج ثوبا للخروج به، بقوله "تنظر إلى الثوب على المغزل، وتقول إنها تنسج هذا الثوب ليوم خروجها. تريد ان تلبسه حين تطلع إلى برّا"، لا تريد أن تطلع إلى الشمس في هذا الثوب البالي (Jaber, p.203)، ويؤكد خروجها، بقوله: "أثناء نومي غادرت البيت. الثوب اختفى عن المغزل (Jaber, p.204)، ورغبة راحيل التي ولدت تحت الأرض بالخروج والتعرف إلى العالم أعلاه، بقولها: "وُلدت هنا تحت الأرض، وهنا عشت كل حياتي، هناك ثور مرسوم بالأبيض على الحائط عند طرف السوق، أنتم تربطون الثور ليجر سكاكين فتحرث الأرض التي تزرعونها، أعرف شكله والقرون في رأسه. هل تعرف ماذا أريد؟ أريد أن أرى كل تلك الأشياء. هل تأخذني معك إلى برّا؟" (Jaber, p.168) وبذلك يؤكد الروائي ضيق المكان على أهله أيضا.

وفي صدّد العالم المغلق استحضر الروائي ربيع جابر خلال تجوال "بطرس" في المدينة الأرضية "بيرتيوس" ورؤيته البيوت التي على وشك السقوط وأصحابها ونظراتهم الحزينة البائسة صورة المخيمات، من خلال حديثه عن مخيم البص في صور جنوب لبنان، حيث أشار أنه ذهب وزملاءه وزاروا المخيم، ورأوا

" النوافذ المفتوحة كانت مفتوحة على الظلام الجوّاني" (Jaber,p.192)، فلم تدخل الشمس بيوتهم تمامًا كالكهوف الحجرية في بيرتيوس، وربط بين فراغ الكثير من البيوت في المدينة الأرضية "بيرتيوس" والمخيم ذاك اليوم الذي ذهبوا لزيارته، فكانوا يتساءلون: " أين أهل المخيم؟ لم نكن نعلم أنهم خرجوا في تظاهرة. هل كانت تظاهرة؟" (Jaber,p.192) هل أراد الروائي جابر أن يقول إن حياة المدينة الغابرة المغلقة أشبه بحياة المخيم، فالمدينة الغابرة لا تمت بصلة للمدينة الجديدة والمخيم كذلك لا يرتبط بالمدينة الجديدة، فبيوتهم غير متشابهة، هل أراد ربيع جابر أن يقول إن أهل المخيم يعيشون في عزلة بواقعا المعاصر الذي نحياه، بعالم مغلق لهم وحدهم، ولفظة "تظاهرة" تحمل دلالة ضمنية على واقعهم البائس الراضين له، والساعين في الخروج منه.

العلاقة بين المكان والذات الإنسانية علاقة عكسية، فكلما انغلق المكان اتسعت الذات في أفقها وخيالها، واتضح ذلك في شخصية بطرس فقد كان يستحضر بيروت المعاصرة "العالم المفتوح" بناسها وشوارعها ومطاعمها وضجيجها، وهو ملقى على السرير في "بيرتيوس"، فكلما سمع صوتاً رده إلى العالم فوقه، فلم تغب عن باله وخياله ألبته، نلاحظ تكراره بعدم نسيانه تأكيداً على ذلك فقد اشتاق لعالمه، تجلّى ذلك بقوله: " لكنني حقاً لم أنس. ولا للحظة واحدة نسيته، شغلنتني صحتي، وشغلنتني تلك الوجوه والنظرات، بلى، لكنني ما نسيته كيف ينسى الواحد بيته وبلده؟ الواحد لا ينسى أبداً، كنت تحت بلدي. وكان شوقي إليها شوقاً يستحيل التعبير عنه بالكلام." (Jaber, p.67_68)

وفي الوقت ذاته كانت العلاقة بين المكان والشخصية مقابلة في التأثر والتأثير، نجد هذا التلاحم في الرواية ظاهراً حين كانت شخصية بطرس تهرب من عالمها الداخلي؛ وهو الخوف من البقاء والعيش في مدينة "بيرتيوس" تحت الأرض، ساعياً للخروج إلى العالم المفتوح، وتبلور ذلك لحظة التقائه بإبراهيم، فقد أسرع لمغادرة المدينة، وهو بذلك هرب من عالمه الداخلي إلى عالمه الخارجي، إلى العيش الحقيقي تحت السماء. فقد نجح الروائي في تصوير تأثير المكان على نفسية الشخصية، حيث إن العلاقة بين المكان المتأزم والعودة إلى الذات، هي من تأثير المكان على البعد النفسي للشخصية.

المكان المفتوح

جنح ربيع جابر إلى الحيز المفتوح في سرده الروائي، وقد اختزله بلفظة براء، العالم البراني، المأهول بالناس، ويستحضر به مدينة بيروت الواقع، وتمثلت في المدينة والجبل والفضاء.
رمز بالمدينة الانفلات من الماضي، والاتصال والتواصل بالعالم الخارجي، تجلّى في عرضه فكرة الاستيراد من الخارج، فقد أحضر زوج خالته جهاز فيديو من الكويت، بقوله: "حين جلب زوج خالتي من

الكويت جهاز فيديو صرنا نستأجر أفلام جاكى شان ونقلد الحركات فيها(Jaber,p.170) ، والسيارات الفاخرة التي يستقلها أهل بيروت، بقوله: " الضجة تعلق "فوق". ثم تتلاشى. هل انتهى الليل؟ هل تقفل المطاعم أبوابها الآن؟ هل يغادر الناس، ونصفهم يترنح، ويطلعون إلى مواقف السيارات، ...، يطلعون في سيارات فخمة فارهة، سيارات ألمانية ويابانية، وأميركية وسويدية" (Jaber,p.158)، وفي موضع آخر استحضر العلاقات الدولية بالمنحة الدراسية خارج لبنان، في قوله: " اكتشفت من قوله أنه يقدر أن يدبر لي منحة إلى الخارج(إلى برّا) إلى باريس أو ليون في فرنسا(Jaber,p.117) ، وأيضًا المطاعم الصينية، والنساء الروسيات، ومزيج الثقافات، الذي عبّر عنه صراحة، بقوله: " أصوات لا تُحصى في فضاء هذا المطعم المفتوح. اللغات تتمازج (عربية وفرنسية ويابانية وإنكليزية وإيطالية)" (Jaber,p.9)، إلا أن المدينة بسعتها وفضائها شعر "والد بطرس" بها بالاختناق، بقوله: " بعد أن تهجرنا بات يتنفس خلال الليل بصعوبة. كأنّ بيروت تخنقه، كان يطلع إلى السطح ليرى السماء، ثم ينزل كئيبيًا(Jaber,p.96) فهل " انفساح المكان أكثر مما يجب يشعّرنا بالاختناق أكثر من المكان الأضيق (Bachelard,1984,p.198).

نلاحظ دلالة برّا بالنسبة لأمكنة الرواية، فبالنسبة لبيروت الواقع برّا العالم بأكمله، وليبروت المتخيلة التاريخية برّا بالنسبة إليها بيروت المعاصرة، وبالنسبة لبيروت زمن الحرب برّا يعني الفرار، أي الهجرة، بقوله: " كنا حزاني بعد خطف ابن خالتي إبراهيم، وكان أبي يتكلم مرة أخرى عن الهجرة: إلى مونتريال، كندا هذه المرة، حيث ذهب أخيرًا زوج عمتي وعائلته" (Jaber,p.140)

ويزداد المشهد تأثيرًا حين يذهب بالقارئ إلى الجبل، حيث المكان المتمسم بالخصوبة والجمال، نسائم الخريف والطبيعة الخلابة والحياة البسيطة الهادئة والطيور والحيوانات، وحليب البقر الساخن، والأشجار، ويرمز بذلك لصفاء الريف ونقاؤه . ويتسع المشهد بسعة الفضاء و البحر، حيث الطيور وأسراب الحمام والغيوم، ونور الشمس والنجوم.

والقارئ المتمعن يلحظ أن المكان المفتوح كان نقطة الانطلاق ونقطة التحرر، فهل يمكننا القول إن الانفتاح المكاني نافذة روحية يطلّ منها الروائي ربيع جابر ليهرب من همومه وثقل حياته؟

ويتساءل القارئ لم أنهى الروائي روايته بهذه الطريقة؟ هل انتهت الحرب حقًا؟ هل نهاية الرواية المفتوحة تُوحى بالواقع، الذي مازال تحت الحرب؟ ترى الباحثة أن نهاية الرواية جاءت مفتوحة، وذلك انعكاس للواقع، الذي يدلّ على عدم انتهاء الحرب حقيقة، وإن كانت ليست حربًا ضارية وعلى العلن، ودليل ذلك اتخاذها الروائي ربيع جابر محورًا لروايته.

النتائج

_ ترنحت الرواية بين ثلاثة أزمنة ومكان واحد، المكان هو بيروت، والأزمنة؛ الزمن الروماني، وزمن الحرب الأهلية، والواقع المعاصر.

_ تحضر مدينة بيروت المعاصرة في خلفية المشهد المكاني للمدينة الرومانية "بيريتوس" بمظاهر الحضارة الجديدة؛ أبنيتها العالية وشوارعها وأرصفاتها وضجيجها، وتعدد مطاعمها وانفتاحها على العالم.

_ استمدّ المكان أهميته في رواية "بيريتوس: مدينة تحت الأرض" من تقديمه حركة التاريخ عبر المكان، والمقصود بحركة التاريخ تلك النهضة العمرانية والاجتماعية التي تشهدها بيروت اليوم، وكون الرواية تعود إلى تاريخ بيروت الروماني؛ أي إلى ما قبل الميلاد، فقدمت للقارئ تصوّرًا عن طبيعة الحياة في ذلك الوقت، هذا من جانب، ومن جانب سلطت الضوء على الحرب الأهلية اللبنانية ونتائجها التي استمرت عقد ونصف.

_ أخرج ربيع جابر ما في ذاته عن الحرب الأهلية اللبنانية الممتدة من عام 1975 إلى عام 1990، الذي عاصرها بطفولته تجاه الأشياء، في مدينة "بيريتوس" الرومانية التي أقامها في خياله وفنه الأدبي رابطًا إياها بالواقع اليوم.

_ تتميز "بيريتوس" بقدرة سلسة على توظيف التاريخ اللبناني، بما يتقاطع مع التطور الاجتماعي والتاريخي في بيروت، حيث يرصد الكاتب بعين حساسة علاقة الماضي باليوم، عبر تطور المكان من خلال تأثير الزمن، ولعل أهم ما ترصده الرواية هو تأثير التطور التاريخي على الحضارة، والعمارة وأثرهما على السلوك الفردي .

_ تفاعل الكاتب مع الأمكنة في الرواية بطريقة متعددة، لكن اللافت للنظر أنّ المكان المفتوح كان نقطة الانطلاق ونقطة التحرر في الرواية.

_ الأطر المكانية التي اتسعت لها الرواية المفتوح والمغلق، فوق الأرض وتحت الأرض، الماضي والواقع، الأمن والمخيف، كفلت للكاتب التعبير عن واقعه، وأبانت عن تاريخ مرعب، حاصر به الموت الإنسان من كل حذب وصوب دون الوقوع في المباشرة والسطحية.

_ انتصر ربيع جابر للحياة وحب العيش والبقاء على الموت، وذلك بسعيه المتواصل للبحث عن بوابة، وإصراره على الخروج، فلم يستطع الصبر كما أشار إليه الآخرون .

الخاتمة

اتّضح أنّ المكان له دلالة واضحة في الرواية اللبنانية " بيرتيوس: مدينة تحت الأرض" للروائي ربيع جابر، حيث قام بوظيفته في تكوين إطار الواقع والتمثيل والإشارة للأحداث. اكتسح المكان الفن الروائي بدءًا من صفحة الغلاف، وتشابك مع عناصره؛ الزمان والشخصيات والأحداث، وقد جاء ذلك مرتبطًا بالفكرة الروائية، وفلسفة الروائي ومبتغاه، فلم يهّم على وجهه، بل ارتبط ارتباطاً رمزياً وثيقاً بالأرض، وما تمثله من عراقة وأصالة تصلها بماضيها وتربطها بواقعها، يمكننا القول إنّ الروائي ربيع جابر استطاع من خلال الأدب توثيق التاريخ، التاريخ الروماني الحجري، وتاريخ الحرب الأهلية اللبنانية، وتاريخ الحاضر.

المصادر والمراجع

- _ الإدريسي يوسف (2015) : عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، ط1، بيروت_ الدار العربية للعلوم ناشرون.
- _ باشلار غاستون(1984) : جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2، بيروت _ المؤسسة الجامعية .
- بلعابد عبد الحق(2008): عتبات جرار جينيت من النص إلى المناص، تقديم سعيد يقطين، ط1، الجزائر_ منشورات الاختلاف.
- جابر ربيع (2005): "بيرييتوس: مدينة تحت الأرض"، ط1، المغرب_المركز الثقافي العربي.
- سمية عزام(2018) " مناهات العنف في «بيرييتوس مدينة تحت الأرض» (قراءة هرمينوطيقية)، مجلة فكر الثقافية،(متاح) مجلة فكر الثقافية - مناهات العنف في «بيرييتوس مدينة تحت الأرض» (قراءة هرمينوطيقية) (fikrmag.com)، تاريخ الزيارة 2021-10-18.
- الشاني صباح هرمز(2020): " بيرييتوس... و تقنية الاسترجاع لبلوغ الحلم" في الحوار المتمدن- عدد: 6571.
صباح هرمز الشاني - بيرييتوس. . و تقنية الإسترجاع لبلوغ الحلم(ahewar.org) ، (متاح)، تاريخ الزيارة 10-18-2021.
- قاسم سيزا (1978) : بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مهرجان القراءة للجميع، سلسلة إبداع امرأة.
- لحميداني حميد(1991): بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ط1، بيروت/الدار البيضاء_ المركز الثقافي العربي.
- محيدلي جاد (2019): مبنى البيضة في وسط بيروت... كان أول "مول" في الشرق الأوسط، (متاح) : مبنى البيضة في وسط بيروت... كان أول مول في الشرق الأوسط! | النهار(annahar.com) تاريخ الزيارة 2021-10-18.
- مرشدة عبد الرحيم(2002): الفضاء الروائي الرواية الأردنية نموذجًا،(د.ط)، المملكة الأردنية الهاشمية وزارة الثقافة.
- مرتاض عبد الملك (1998): في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت_عالم المعرفة.
- موقع arageek (on-line)، متاح من : (ما لا تعرفه عن ربيع جابر .. من هو؟ سيرته الذاتية، إنجازاته وأقواله، معلومات عن ربيع جابر(arageek.com))
- موقع أبجد، (on-line)، متاح من : ربيع جابر | أبجد(abjjad.com) .
- موقع كتارا (on-line)، متاح من : ربيع جابر | جائزة كتارا للرواية العربية(kataranovels.com) .
- موقع ويكيبيديا (on-line)، متاح من : (اغتيال رفيق الحريري - ويكيبيديا(wikipedia.org)
- النصير ياسين (1986): الرواية والمكان، (د.ط)، بغداد_ دار الحرية للطباعة.

References

- _Al-İdrisi, Y. (2015). Paratexts in the Arab Legacy and the Contemporary Critical Discourse (1st ed.), Beirut, Lebanon: Arab House of Science Publishers.
- _Bachelard, G. (1984): The Poetics of Space (2nd ed. Halsa, G. Trans.), Beirut, Lebanon: University Foundation.
- _Belabed, A. (2008). Atabat Al-Nas, Gérard Genette: Min Al-Nas Ila Al-Manas (1st ed.), Algeria: Al-Dakhlaf Publications.
- _Jaber, R. (2005). "Berytus: an Underground City." (1st ed.), Morocco: Arab Cultural Center.
- Azzam, S. (2018). The Labyrinths of Violence in "Berytus: an Underground City," a Hermeneutic Reading. Fikr Cultural Magazine. (2021, Oct 18). fikrmag.com.
- Al-Shani, S. H (2020). Berytus... Wa Tiqaniyat Al-Istirja Li Tahqiq Al-Hulum (Issue No. 6571). Al-Hiwar Al-Mutamadden. (2021, Oct 18). ahewar.org .
- _Qassem, S. (1978). Constructing the Novel: A Comparative Study in Najib Mahfouz's Trilogy, The Reading Festival for All, The Creativity of Women's Series.
- Lahmidani, H. (1991). The Structure of the Narrative Text: A Literary Critical Perspective (1st ed.), Beirut, Lebanon: Al-Dar Al-Bayda.
- Mahadli, J. (2019): Mabna El Baida fi Wasat Beirut... Kan 'Awal "Mul" Fi Al-Sharq Al-Awsat! An-Nahar. (2021, Oct 18) annahar.com.
- _Marashda A. R. (2002). Al-Fada' Al-Riwai, Ar-Riwaya Al-Urduniya, the Hashemite Kingdom of Jordan: Ministry of Culture.
- Murtad, A.M. (1998). On Novel Theory, a Study of Narration Techniques, Kuwait: The World of Knowledge.
- _ (on-line), available from: Rabie Jaber | Katara Prize for Arabic Fiction (kataranovels.com)
- Abjad website, (on-line), available from: Rabie Jaber | Abjad (abjjad.com.)
- (on-line), available from: (What you do not know about Rabie Jaber .. Who is he? His biography, achievements and sayings, information about Rabie Jaber (arageek.com((
- (on-line), available from: (Assassination of Rafik Hariri - Wikipedia (wikipedia.org(
- Al-Naseer, Y. (1986). Al-Riwaya Wal-Makan, Baghdad: Dar Al-Hurriya.

- ¹ انظر: محيدلي حاد (2019): مبنى البيضة في وسط بيروت... كان أول "مول" في الشرق الأوسط!، متاح: [مبنى البيضة في وسط بيروت... كان أول مول في الشرق الأوسط! | النهار \(annahar.com\)](#) تاريخ الزيارة 2021-10-18.
- ² عزام سمية (2018): " متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض» (قراءة هرمينوطيقية) .متاح: www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=736، تاريخ الزيارة 2021-10-18.
- ³ الشاني صباح(2020) " بيريتوس... و تقنية الاسترجاع لبلوغ اللحم". متاح صباح هرمز الشاني - بيريتوس. . و تقنية الإسترجاع لبلوغ اللحم(ahewar.org). تاريخ الزيارة 2021-10-18.
- ⁴ انظر: [اغتيال رفيق الحريري - ويكيبيديا\(wikipedia.org\)](https://en.wikipedia.org/wiki/Beirut)
- ⁵ انظر: عزام سمية: متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض» (قراءة هرمينوطيقية، (متاح) [مجلة فكر الثقافية - متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض» \(قراءة هرمينوطيقية\)\(fikrmag.com\)](#))
- ⁶ انظر: عزام سمية: متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض» (قراءة هرمينوطيقية، (متاح) [مجلة فكر الثقافية - متاهات العنف في «بيريتوس مدينة تحت الأرض» \(قراءة هرمينوطيقية\)\(fikrmag.com\)](#))